الباب الثالث

تاريخ القدس

حظيت مدينة القدس- وما تزال- بمكانة عظيمة في التاريخ الإنساني، لم تضاهيها في ذلك أي مدينة عبر التاريخ وعلى مر العصور، ولقد تميزت هذه المدينة بخصوصية اكتسبتها من انفرادها بالبعد الروحي المرتبط بالزمان والمكان؛ فهي في الزمان ضاربة جذورها منذ الأزل بوجهها الكنعاني الحضاري، وتمتعت بكل من الموقع والموضع، فكانت ملتقى الاتصال والتواصل بين قارات العالم القديم، تعاقبت عليها الحضارات وأقامت بها المجموعات البشرية المختلفة، مخلفة وراءها آثارها ومخطوطاتها الأثرية التي جسدت الملاحم والحضارة والتاريخ دلالة على عظم وقدسية المكان.

ولا بد أن يكون لمثل هذه الظاهرة الحضارية الفذة أسباب ومبررات هي سر خلودها واستمرارها آلاف السنين، رغم كل ما حل بها من نكبات وحروب أدت إلى هدم المدينة وإعادة بنائها ثماني عشر مرة عبر التاريخ، وفي كل مرة كانت تخرج أعظم وأصلب من سابقتها وأكثر رسوخاً، دليلاً على إصرار المدينة المقدسة على البقاء، فمنذ أن قامت القدس الأولى الكنعانية قبل نحو ٦٠٠٠ سنة ق.م وهي محط أنظار البشرية منذ نشأت الحضارات الأولى في فلسطين ووادي النيل والرافدين مروراً بالحضارة العربية الإسلامية حتى يومنا هذا.

ويرجع المؤرخون بداية الحضارة في القدس الى عشرة آلاف عام تقريباً، حيث ظهرت حضارة النطوفيين التي اكتشفت آثارهم في وادي النطوف غربي القدس، وكانوا أول من عرف الزراعة عبر التاريخ في الألف الرابع قبل الميلاد هاجرت من الجزيرة العربية قبائل العموريين والكنعانيين ومنهم اليبوسيون الى ارض فلسطين، التي أطلق عليها أرض كنعان، وكان اليبوسيون أول من سكن مدينة القدس حوالي ٢٥٠٠ قبل الميلاد ومن أشهر ملوكهم سالم الذي بنى فيها حصناً واحاطه بأسوار، وسميت المدينة باسمه أورسالم، ومن ملوكهم كذلك ملكي صادق الذي تشير التوراة إلى إيمانه بالله، وصداقته لإبراهيم الخليل عليه السلام، واتخاذه من الحرم القدسي الشريف معبداً له.

القدس ومصر الفرعونية

عثر علماء الآثار في مصر على قبور ونقوش كثيرة ترجع إلى الأسرة الفرعونية السادسة (حوالي سنة ٢٤٢٠ – ٢٢٨٠ق.م)، سجل بعضُها معلومات عن أقدم حملة حربية في التاريخ المعروف لنا، شارك فيها جيش وأسطول بحري من مصر، وقد كانت هذه الحملة في عهد الملك بيبي الأول، وأُرسلت لإخماد ثورة مشتعلة ضد الحكم المصري في فلسطين بناحية الكرمل.

يقول أحد رجال بيبي الأول في نقش نفيس مازال محفوظا إلى اليوم: وعلى إثر ذلك – أي اشتعال الثورة – أبحرتُ في سفن البحر ومعي فصائل جنود، ونزلتُ خلف مرتفعات الجبال الواقعة شمالي بلاد سكان الرمال، وعندما سار هذا الجيش على المرتفعات سرتُ وقبضت على الثوار بأكملهم، وقضي على العصاة كلهم.وهذه القوة في مواجهة ثورة داخلية تدل على أنها ليست محاولة لإخماد الثورة القائمة فحسب، بل هي يضًا عمل لإرهاب من يفكر – مجرد تفكير – في الثورة، مما يعني أن فلسطين كانت مسرحًا لثورات متتابعة..

والمؤرخون يرون أن وقوع الكنعانيين بين حضارات قوية فيما بين النهرين ومصر وهناك قصة فرعونية شهيرة بطلها أمير يُدعَى سنوهيت، ترجع إلى القرن التاسع عشر قبل الميلاد، تكشف عن معيشة بدوية كانت تحياها فلسطين في هذا الزمن، فالقبيلة هي صاحبة السيطرة، وتنافسها بقية القبائل على المنافع، ومن شأن هذا أن يسبب متاعب لحكام مصر، فكان لابد من إخضاع المنطقة لهم، أو ضمان ولاء أمرائها.

وسنوهيت هذا الأمير الذي كان من رجال أمنمحات الأول (١٩٩١ – ١٩٦٢ق.م) هرب من مصر إلى فلسطين بعد انفراد سنوسرت الثالث (١٨٧٨ – ١٨٤٣ق.م) بالحكم، واختلط بالقبائل البدوية المقيمة هناك،

وصاحَب أحد شيوخها (تسمّيه الوثيقة القديمة عمو ننشي)، الذي حنا عليه، وزوّجه من كبرى بناته، وأدمجه في حياة البادية، حتى صار ذا مال وذرية، واستعمل مهارته في تسكين ثورات البدو.

يقول سنوهيت: لما أخذ البدو يخرجون عن الطاعة، ويقاومون رؤساء الصحارى كبَحتُ جِماحهم،لأن أمير فلسطين قد جعلني عدة أعوام رئيس جيشه، وكل بلاد سرت إليها قد طردتها من مراعيها وآبارها، ونهبت ماشيتها، وأسرت أهلها ويحكي سنوهيت عن مبارزة شرسة وقعت بينه وبين مقاتل فاتك من فلسطين، يقول: وقد جاء رجل قوي من فلسطين ليبارزني في معسكري، وقد كان بطلاً منقطع النظير، أخضع كل فلسطين (يقصد – فيما يبدو – أنه لم يهزمه أحد من أهلها في المبارزة) وعند الفجر كانت فلسطين قد جاءت (يعبر عن كثرة من حضر المبارزة)؛ إذ إنها أثارت قبائلها، وحشدت ممالكها، وهيأت هذا النزال.

إنها حياة بدوية لا يستقر فيها الولاء لأحد، فكان الفراعنة يضمنون تبعية فلسطين بولاء أمراء المدن لهم – ويبدو أنهم كانوا كثيرين – لكن هؤلاء الأمراء كانوا يتعرضون لهجمات متتالية من البدو، لا تتوقف إلا لتبدأ من جديد، فكان لابد من مساندة الفراعنة لأتباعهم. كما أن هؤلاء

الأمراء أنفسهم كانوا ينقضون ولاءهم للحكومة المركزية في مصر أحياناً.

وقد كان الاختلاط بين الأجناس في مصر وأملاكها مما لا يحول دونه حائل، فمثلا اكتُشف حديثا ما أدهش علماء الآثار، فقد تبين لهم من خلال لوحة فرعونية قديمة (لوحة الملك آي) أن قوماً من الكنعانيين وفدوا على مصر، وسكنوا في منطقة أبي الهول في عهد الدولة الحديثة (من عام ١٥٦٧ – ١٠٨٥ق.م)، وقد تأثر المصريون بضيوفهم، فعبدوا مثلهم ما يسمَّى بالإله حورون، وجاء تمثال أبو الهول الشهير أثرًا لهذه العبادة، وحمل اسمًا ساميًا هو بر حول، وتحول على لسان العرب إلى أبو الهول.

مهما يكن، فقد كانت القدس طوال ارتباط فلسطين بمصر جزءاً من مسرح الأحداث المصري، فأميرها إما أن يكون موالياً لفرعون مصر يستحق المعونة والمساعدة، وإما أن يتزعم معاداة مصر والخروج على سلطانها فيستحق اللعن حتى في الطقوس الدينية!!

لقد عمل فراعنة الأسرة الثانية عشرة (من ١٩٩١ – ١٧٧٨ق.م) على بسط سلطانهم في اتجاه سوريا، وسيطروا سياسياً واقتصادياً على أرض كنعان، دون أن تصير إقليمًا مصريًا وتركز اهتمام المصريين حينئذ على المدن الكنعانية لأهميتها التجارية والعسكرية، ولكن القدس لم يكن

لها حظ كبير في هذا الأمر حينئذ، وقد شق أميرها عصا الطاعة، حتى عد سنوسرت الثالث مَلِكَها عدواً له يستوجب اللعنات في الطقوس الدينية.

وفي أحد النقوش الفرعونية القديمة سجل أحد ضباط سنوسرت الثالث يدعَى سبك خو ما يؤكد توجيه هذا الفرعون حملة عسكرية إلى فلسطين، وأنه عسكر بمكان يسمَّى سكمم بوسط فلسطين، كما عُثر على آثار فرعونية في مجدو وغيرها من مناطق فلسطين ترجع إلى هذه الفترة الزمنية القرن التاسع عشر قبل الميلاد، مما يؤيد الرأي القائل بسيطرة مصر على القدس وما سواها في هذا التاريخ.

وفي القرن الخامس عشر قبل الميلاد دخل الفراعنة في صراع مع الحيثِيّين في الأناضول وملوك بلاد ما وراء النهر، فاحتاجوا إلى ضمان خضوع أرض كنعان لسلطانهم، حتى يمروا خلالها إلى أعدائهم في أمان، فنجح تحوتمس الثالث (١٥٠٤ – ١٤٥٠ق.م) في إخضاعهم، وكانت القدس من المدن التي أخضعها، وإن تمتع الأمراء هناك باستقلال كبير. ويُنسب إلى هذا الفرعون تأسيس قلعة في بيسان.

وفي القرن الرابع عشر قبل الميلاد، كانت الغارات البدوية على أمراء المدن التابعين لمصر تزداد، فكانت الاستغاثات وطلبات النجدة تتابع، وممن أرسلوا يطلبون النجدة من أخناتون (١٣٧٢ – ١٣٥٤ ق.م) أمير

يوروساليم (القدس) عبدي خيبا، الذي حذر الفرعون بقوة من سقوط المدينة في يد قبائل خبيري الشرسة. ولكن ظروف مصر حينئذ حالت دون إنقاذ الموقف.

ويسجل مؤرخو التاريخ الفرعوني أن مصر قد عاشت قرنين من الزمان على الغنائم التي حملها شيشنق من فلسطين، ولا أدلَّ على ذلك من العمائر التي أخذ في إقامتها ملوكُ هذه الأسرة الثانية والعشرين، مما يدل على بسطة في المال وسعة في الرزق وهذا يعني فقد بني إسرائيل للكثير من الكنوز والثروات التي خلّفها داود وسليمان عليهما السلام مبكراً.

وقد كان الهدف من هذه الحملة – كما هي العادة الفرعونية – ضمان ولاء ملوك هذه الجهات لحاكم مصر، ومنع قيام دولة قوية هناك تهدد سلطانهم، وتضع طرق تنقلهم العسكرية والتجارية في دائرة الخطر.

حكم اليهود

أول دخول لليهود إلى القدس كان زمن داوود عليه السلام، الذي سيطر على المدينة حوالي عام ١٠٠٠ قبل الميلاد، وسمى المدينة باسمه، وبنى فيها حصون وقصراً له، ثم خلفه في حكم القدس ابنه سليمان عليه السلام الذي بنى فيها هيكله المعروف باسمه، واستمر حكم

اليهود للمدينة ٣٠٠٠ عام تعرضت خلالها لكثير من غزوات الاعداء وانتشر فيها الفساد والفوضى وعبادة الأوثان.

بيت المقدس قبيل الغزوين الآشوري والبابلي

لم يكن هدف شيشنق الأول من حملته على فلسطين حوالي سنة ٩٢٠ ق. م أن يضع يده عليها مباشرة، إنما أراد فقط أن يضمن ولاءها للتاج الفرعوني، ويقضي على أي قوة يمكن أن تنشئ دولة متحدة فيها؛ لذلك بقيت سلالة سليمان تحكم هناك زمناً، حتى دمر الآشوريون مملكة إسرائيل عام ٧٢٢ – ٧٢١ ق.م، ودمر البابليون مملكة يهوذا سنة ٥٩٧ ق.م وحسب رواية العهد القديم، فقد مكث رحبعام بن سليمان في حكم مملكة يهوذا وعاصمتها القدس سبع عشرة سنة، حيث مات بعد حملة الفرعون شيشنق باثنى عشر عاماً، وتتابعت ذريته في حكم المملكة الجنوبية حتى بلغوا تسعة عشر ملكاً، حكم بعضهم شهورًا، وتجاوز حكم بعضهم نصف قرن من الزمان.

وعن أحوال المملكتين اليهوديتين أثناء هذه الفترة كما ترويها أسفار العهد القديم يقول بعض الباحثين بحق: احتوت الأسفار كثيراً من أخبار دولتي إسرائيل ويهوذا وأحوالهما الداخلية والخارجية، وما ارتكست فيه الدولتان وملوكهما من فتن وحروب أهلية وانحرافات دينية وخلقية، وما

تعرضتا له من غزوات خارجية ولم يكد يُسجَّل لهما فيها إلا حقب قصيرة من السيادة التامة أو الانتصار على غيرهما، كما أن ما سجلته من الصلاح والاستقامة أقل بكثير مما سجلته من الانحرافات الدينية والأخلاقية.

إذن كان الجو مهيّئا لسقوط المملكتين اليهوديتين إسرائيل ويهودا، فقد عمت الفُرقة والتشرذم والتقاتل الداخلي، وانتشر بين عامة الناس وخاصتهم الفسادُ الخلقي والانحراف عن أوامر الدين، حتى كانت القدس نفسها ساحة مفتوحة للانحراف في العقيدة والخلق وظهرت في هذه الأثناء دول متحضرة، لكنها ضارية كالوحوش، فيما بين النهرين (دجلة والفرات) في أزمنة متتالية، فدمر الآشوريون أولاً عروش دولة إسرائيل التي حالفت السوريين ضدهم، وأوقفوا زحفهم في عهد الملك العبري أخاب بن عمري (حكم من ٨٧٤ – ٨٥٢ ق.م)، فتربص الآشوريون بمملكة إسرائيل حتى أسقطها سرجون الثاني بعد وفاة أخاب المذكور بثلاثين عاما.

حكم الفرس

احتل الفرس مدينة القدس زمن نبوخذ نصرعام ٥٨٦ قبل الميلاد، الذي دمر المدينة وأحرق الهيكل، وقضى على وجود اليهود فيها وسباهم

إلى بابل، بالعراق، إلى أن سمح لهم الملك قورش الفارسي عام ٥٣٨ ق.م بالعودة إلى القدس، وبنى لهم هيكلاً سماه هيكل قورش.

العموريون والكنعانيون

وفقاً للتقديرات التاريخية فإن الهجرة الأمورية- الكنعانية من الجزيرة العربية قد حدثت قبل ٧ آلاف سنة، وذلك من خلال تتبع الآثار في مدنهم القديمة، ولعل أقدمها مدينة أريحا الباقية حتى اليوم والتي تعتبر أقدم مدينة في العالم وإن تأرجحت تقديرات البداية الزمنية لوجود الكنعانيين، فما من خلاف فيه أنهم كانوا أول من سكن المنطقة من الشعوب المعروفة تاريخياً، وأول من بنى على أرض فلسطين حضارة حيث ورد في الكتابات العبرية أن الكنعانيين هم سكان البلاد الأصليون، كما ذكر في التوراة أنه الشعب الأموري ولعل الكنعانيين هم أنفسهم العموريون أو ينحدرون منهم، وكذلك الفينيقيون، فقد كان الكنعانيون والفينيقيون في الأساس شعباً واحداً، تجمعهما روابط الدين واللغة والحضارة ولكن لم تكن تجمعهما روابط سياسية إلا في حالات درء الخطر الخارجي القادم من الشمال أو الجنوب.

ووفقا للتوراة فإن كنعان تمتد من أوجاريت (رأس شمرا) حتى غزة، وقد تم العثور على قطعة نقود أثرية كتب عليها اللاذقية في كنعان، وفي تلك الفترة توصل الكنعانيون إلى بناء الصهاريج فوق السطوح، وحفر

الأنفاق الطولية تحت الأرض لإيصال المياه داخل القلاع، ومن أهم هذه الأنفاق نفق مدينة جازر التي كانت تقع على بعد ٣٥ كم من القدس. وكذلك نفق يبوس) القدس)، حفره اليبوسيون، وجاءوا بالمياه إلى حصن يبوس من نبع جيحون.

اليبوسيون بناة القدس الأولون

اليبوسيون هم بطن من بطون العرب الأوائل، نشئوا في قلب الجزيرة العربية، ثم نزحوا عنها مع من نزح من القبائل الكنعانية التي ينتمون إليها، إنهم أول من سكن القدس وأول من بنى فيها لبنة.

وعندما رحل الكنعانيون عن الجزيرة العربية رحلوا جماعات منفصلة وقد حطت هذه الجماعات في أماكن مختلفة من فلسطين فراحت تدعى أرض كنعان، فبعضهم اعتصم بالجبال، والبعض الأخر بالسهول والوديان ، وقد عاشوا في بداية الأمر متفرقين في أنحاء مختلفة، حتى المدن التي أنشئوها ومنها (يبوس، وشكيم، وبيت شان، ومجدو، وبيت إيل، وجيزر، واشقلون، وتعنك، وغزة)، وغيرها من المدن التي لا تزال حتى يومنا هذا، بقيت كل مدينة من هذه المدن تعيش مستقلة عن الأخرى، هكذا كان الكنعانيون في بداية الأمر، ولكن ما لبث أن اتحدوا بحكم الطبيعة وغريزة الدفاع عن النفس، فكونوا قوة كبيرة، واستطاعوا بعدئذ أن يغزوا البلاد

المجاورة لهم، فأسسوا كيانا عظيما بقى فترة طويلة.

كانت يبوس في ذلك العهد حصينة آهلة بالسكان، واشتهرت بزراعة العنب والزيتون كما عرفوا أنواعاً عديدة من المعادن منها النحاس والبرونز، كما عرفوا أنواع عديدة من الخضار والحيوانات الداجنة، كما عرفوا الخشب واستخدموه في صناعاتهم عن طريق الفينيقيين، كما اشتهروا بصناعة الأسلحة والثياب ولقد أسس الكنعانيون واليبوسيون حضارة كنعانية ذات طابع خاص، ورد ذكرها في ألواح تل العمارنة.

ومن التفاصيل التي وردت في رسائل العمارنة:

- علاقة مدينة القدس بملوك الفراعنة أمنحوتب الثالث والرابع إخناتون .
- احتواء أرشيف العمارنة على ٣٥٠ رسالة مكتوبة باللغة الأكدية أرسلت من ملوك المدن الكنعانية إلى أمنحوتب الرابع، وتتحدث في معظمها عن العلاقات بين الطرفين والمساعدات التي ترسل إلى تلك المدن من الحكومة المركزية في مصر .
- تحدثت إحدى الرسائل عن اتفاقية حدود بين القدس وكل من جاراتها شكيم في الشمال وبيت لحم في الجنوب، حيث تنظم هذه الاتفاقية نقاط الحدود بين هذه الممالك .
- وورد في إحدى هذه الرسائل كلمة أفرى وتعني الغريب، وتنطبق هذه

الكلمة على أولاد يعقوب، ومنها بدأت عملية التزوير التي أطلق بموجبها على الشعب اليهودي العبري في حين كانت أشد ما تكون وضوحا في الرسالة .

- ونلاحظ في رسائل أخرى عديدة اختلاف أو تعدد أسماء القدس .

- عثر أثناء الحفريات أيضاً على بقايا فرعونية في موقع كنيسة الست اثنى وهي عبارة عن نصوص مكتوبة على لوح فخاري تدل على وجود معبد كانت تمارس به طقوس العبادة الفرعونية .

- تعود معظم الأبنية والأنماط المعمارية لهذا العصر، حيث وجدت في موقع مدينة أوفل أي خارج سور باب المغاربة.

- دلت الأساسات والبقايا والأنماط المعمارية التي اكتشفت في أعوام (١٩٦١-١٩٦٢-١٩٦٣م على وجود أسوار بلغ ارتفاعها حوالي ١٠ أمتار، كما تدلل الكثير من الأبنية المكتشفة على وجود قصور وقلاع وحصون كانت قائمة في المدينة في تلك الحقبة .

- ومن أعظم المواقع المكتشفة وأبدعها في هذا العصر دار الحكومة في الجهة الجنوبية ، كما أن الكهوف التي اكتشفت في منحدرات جبل الزيتون ساعدت في التعرف على كثير من التماثيل والمواد الأثرية التي لم يتم نشرها ، بل حفظت في مجموعات توجد الآن في متحف لندن وقد ظهر بينهم ملوك عظماء بنوا القلاع وأنشئوا الحصون وأنشئوا

حولها أسوارًا من طين، ومن ملوكهم الذين حفظ التاريخ أسماءهم، ملكي صادق ويعتبر هو أول من بنى فى موضع يبوس وأسسها، وكانت له سلطة على من جاوره من الملوك، حيث أطلق بنو قومه عليه لقب كاهن الرب الأعظم.

وكانت يبوس في ذلك العهد ذات أهمية من الناحية التجارية ومن أنشط المدن الكنعانية، لأنها واقعة على طرق التجارة، كما كانت ذات أهمية من الناحية الحربية؛ لأنها مبنية على ٤ تلال وكانت محاطة بسورين، وحفر اليبوسيون تحت الأرض نفقاً يمكنهم من الوصول إلى عين روجل التي سميت الآن عين أم الدرج.

كذلك كان فيها واد يعرف بواد الترويين يفصل بين تل أوفل وتل مدريا - عندما خرج بنو إسرائيل من مصر، ونظروا أرض كنعان ورأوا فيها ما رأوا من خيرات راحوا يغيرون عليها بقصد امتلاكها قائلين: إنها هي الأرض التي وعدهم الله بها، وبذلك أيقن الكنعانيون الخطر القادم فطلبوا العون من مصر؛ لأن بني إسرائيل كانوا كلما احتلوا مدينة خربوها وأعملوا السيف فيها، أما المصريون فقد كانوا يكتفون بالجزية، فلا يتعرضون لسكان البلاد وعاداتهم ومعتقداتهم ولم يتوان المصريون في مد يد العون إلى الكنعانيين، فراحوا يدفعوا الأذى عنهم ونجحوا في صد الغارات والكنعانيين ضد العبريين.

ومن الجدير ذكره أن هناك بين ألواح تل العمارنة التي وجدت في هيكل الكرنك بصعيد مصر لوح يستدل منه على أن عبد حيبا أحد رجال السلطة المحلية في أورسالم أرسل عام ١٥٥٠ ق.م إلى فرعون مصر تحتموس الأول رسالة طلب إليه أن يحميه من شر قوم دعاهم في رسالته بالخبيري أو الحبيري .

بنو إسرائيل والقدس

في عهد الفرعون المصري رمسيس الثاني وولده مرنبتاح، خرج بنو إسرائيل من مصر وكان ذلك عام ١٣٥٠ ق.م، لقد اجتازوا بقيادة نبي الله موسى صحراء سيناء وحاولوا في بادئ الأمر دخول فلسطين من ناحيتها الجنوبية، فوجدوا فيها قوماً جبارين فرجعوا إلى موسى وقالوا له كما يخبرنا القرآن الكريم فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ وبعدها حكم عليهم الرب بالتيه في صحراء سيناء ٤٠ عاما.

وبعدها توفي موسى ودفن في واد قريب من بيت فغور، ولم يعرف إنسان قبره إلى الآن وتولى يوشع بن نون قيادة بني إسرائيل بعد موسى وهو أحد الذين أرسلهم موسى لعبور فلسطين، فعبر بهم نهر الأردن ١١٨٩ ق.م على رأس ٤ أسباط هم :راشيل، إفرايم، منسه، بنيامين، واحتل أريحا بعد حصار دام ٦ أيام فأعملوا فيها السيف وارتكبوا أبشع المذابح، ولم ينج لا رجل ولا امرأة ولا شيخ ولا طفل ولا حتى البهائم ثم

أحرقوا المدينة بالنار مع كل ما فيها، بعد أن نهبوا البلاد وبعدها تمكنوا من احتلال بعض المدن الكنعانية الأخرى حيث لقيت هذه المدن أيضا ما لقيته سابقتها.

وبعد أن سمع الكنعانيون نبأ خروج بني إسرائيل من مصر هبوا لإعداد العدة، حيث عقد ملك أورسالم أضوني صادق حلفاً مع الملوك المجاورين له وكان عددهم واحداً وثلاثين مكونين جيشا مجهزاً قوياً، لذلك لم يتمكن يوشع من إخضاع الكنعانيين ومات دون أن يتمكن من احتلال أورسالم لأنها كانت محصنة تحصيناً تاماً وكانت تحيط بها أسوار منيعة، ولقد مات يوشع بعد أن حكم ٢٧ سنة بعد موت موسى، وبعده تولى قيادة بني إسرائيل يهودا وأخوه شمعون حيث غزا بنو إسرائيل في عهدهما الكنعانيين مرة أخرى وحاولوا إخضاعهم ورغم أن الكنعانيين خسروا ما يقارب ١٠ آلاف رجل في هذه المعركة فإن بني إسرائيل أرغموا على مغادرة المدينة.

عهد القضاة

عاش بنو إسرائيل على الفوضى والضلال طيلة حكم القضاة وعددهم أربعة عشر، وكان تاريخهم عبارة عن مشاغبات وانقسامات، حيث ارتد الكثير من الإسرائيليين إلى ديانات الكنعانيين وعبادة أوثانهم كبعل وعشتروت، بالإضافة إلى الانقسامات والانقلابات الداخلية التي دبت في

صفوفهم فكانوا يلتفون حول القائد الذي يتولى قيادة أمورهم سنة، ثم ينقلبون عليه ويعصون أوامره سنين، وخلال هذه الفوضى لم يذوقوا طعم الحرية والاستقلال أبداً؛ إذ حاربهم الكنعانيون وقضوا مضاجعهم أجيالاً طويلة، ومن ثم حاربهم المؤابيون، وألحقوا بهم الذل والهوان، ثم حاربهم المديانيون والعمونيون والفلسطينيون حيث كانت حروبهم مع الفلسطينيين أشد ضراوة وأبعدها أثراً؛ الأمر الذي أدى إلى انتحار شاؤول ملك العبرانيين سنة ١٠٩٥ ق .م .

ويذكر لنا التاريخ أن المدن الكنعانية ـ الفلسطينية التي عجز العبرانيون عن فتحها كانت ذات حضارة قديمة، حيث كانت المنازل مشيدة بإتقان، فيها الكثير من أسباب الراحة والرفاهية وكانت مدنهم تشتهر بحركة تجارية وصناعية نشطة وكانت المدن على علم ومعرفة بالكتابة ، ولها ديانة وحكومة سياسية أيضا، فلقد اقتبس أولئك العبرانيون من مواطني المدن الكنعانية حضارة لأنهم لم يستطيعوا أن يعيشوا بمعزل عن أهل هذه المدن التي عجزوا عن فتحها وقد أحدث هذا الامتزاج تغيرات جوهرية في حياة العبرانيين، فترك بعضهم سكنى الخيام وشرعوا يبنون بيوتاً كبيوت الكنعانيين، وخلعوا عنهم الجلود التي كانوا يلبسونها وهم في البادية، ولبسوا عوضاً عنها الثياب الكنعانية.

هذا حال العبرانيين الذين أقاموا في الشمال الخصيب، أما أولئك الذين أقاموا في جنوب فلسطين فقد حافظوا على أسلوب معيشتهم البدوية القديمة.

ومن الجدير ذكره في تاريخ بني إسرائيل في تلك الحقبة أن منازعات داخلية كبيرة نشبت بين شاؤول وداود وبين أسرتيهما، أما داود فقد حالف الفلسطينيين وعقد معهم حلفاً والآخر أراد أن يحصل على استقلاله بالقوة؛ الأمر الذي عصى عليه ومات مقهوراً.

ويدعي بعض اليهود أن المسجد الأقصى أقيم على أنقاض الهيكل الذي بناه سليمان بعدما أصبح ملكاً على بني إسرائيل بعد موت أبيه داود غير أن هذا ليس صحيحاً، فحتى هذه اللحظة لم يكتشف أي أثر يدل على بناء الهيكل في هذا المكان أو في منطقة القدس، ولم يستطع أحد أن يحدد مكان مدينة داود فكيف لليهود أن يتحدثوا عن الهيكل.

ونذكر هنا أن مدينة القدس تعرضت لغزوات عديدة كان أولها من قبل الكلدانيين، حيث قام نبوخذ نصر بسبي بعض اليهود المقيمين في أطراف المدن الكنعانية لرفضهم دفع الجزية، فيما عرف بالسبي البابلي الأول وتلاه غزو آخر عرف بالسبي البابلي الثاني بسبب انضمام بعض اليهود إلى جملة المدن الثائرة على بابل عام ٥٨٦ قبل الميلاد، واقتاد عدداً منهم أسرى إلى بابل وتلى ذلك الغزو الفارسي للمدينة سنة-539

538ق.م ومن ثم تعرضت المدينة للغزو اليوناني عندما دخل الإسكندر المقدوني الكبير فلسطين سنة ٣٣٢ ق.م وبعد ذلك دخلت الجيوش الرومانية القدس سنة ٦٣ ق.م على يد بوبي بومبيوس الذي عمل على تدميرها بعد أن تم دمج الأطراف الشرقية للبحر الأبيض المتوسط في الإمبراطورية الرومانية، وفي هذه الأثناء عهد بومبي بسوريا إلى أحد الموظفين الرومان البارزين وهو جابينيوس 55-57 ق.م الذي عمل على فرض ضرائب باهظة على السكان وتقسيم الدولة إلى ٥ أقاليم يحكم كل منها مجلس، وأعاد نمابينيوس بناء عدد من المدن اليونانية- السورية التي كان المكابيون قد هدموها مثل السامرة وبيسان وغزة.

في تلك الفترة شهدت روما حروباً أهلية، ودب الاضطراب في الدولة الرومانية كلها؛ وهو ما أدى إلى انتقال هذه الاضطرابات إلى سوريا، وأثناء تقسيم العالم الروماني من قبل الحكومة الثلاثية، أصبحت سوريا ومصر والشرق تحت سلطة أنطونيو المعروف بعلاقاته مع كليوباترا ملكة مصر.

وفي هذه الأثناء أهمل أنطونيو الأسرة الكابية، ووضع مكانها الأسرة الهيرودية، وبرز من هذه الأسرة هيرودوس الكبير عام ٣٧ ق.م الذي أخذ أورشليم ووطد سلطته عليها وبقي على الحكم ما يقارب الثلاثة

وثلاثين عاماً بدعم من روما. وكان لهيرودس الكبير فضل إعادة تعمير مدينة القدس وبناء بعض المرافق العامة .

الحكم اليوناني والروماني

عام ٣٣٢ ق.م وصل الاسكندر الاكبر الى القدس عبر معاركه نحو الشرق، وبعد وفاته خضعت القدس لحكم البطالمة في مصر ثم السلوقيين في سوريا، وفي عهد الملك السلوقي انطيوخوس الرابع جرى تدمير الهيكل عام ١٦٥ق.م وأرغم اليهود على اعتناق الوثنية.

وفي عام ٦٣ ق.م خضعت المدينة للامبراطورية الرومانية بعدما استولى عليها القائد بومبي، وقد عامل الرومان اليهود معاملة حسنة وسمح لهم بتجديد بناء الهيكل، ورغم ذلك تمردوا في عهد الامبراطور نيرون الذي أرسل قائده تيطس لتأديبهم عام ٧٠م، فاحرق القدس ونهبها وسبى منهم عدداً كبيراً ثم تعرضت القدس للتدمير مرة اخرى عام ١٣٥ م في عهد الامبراطور هادريان بعد تمرد اليهود للمرة الثانية ورفض السماح لغير المسيحيين بالاقامة في المدينة وبمساعدة اليهود هاجم الفرس عام ٦١٤م مدينة القدس واحتلوها، إلى ان تمكن الامبراطور هرقل من استردادها عام ٦٢٧م.

حروب الروم والفرس

انقسمت الإمبراطورية الرومانية عام ٣٩٥م إلى قسمين متناحرين: الإمبراطورية الغربية وعاصمتها روما، والإمبراطورية الشرقية أو البيزنطية وعاصمتها القسطنطينية، وخضعت القدس مع باقي بلاد الشام للإمبراطورية الأخيرة وشجع الانقسام الروماني الفرس على الإغارة على القدس، فأمر شاه الإمبراطورية الساسانية، كسرى الثاني، قائدا جيوشه شهربراز وشاهين، بالسير إلى سوريا واستخلاص القدس من أيدي الروم، ففعلا ما طُلب منهما ونجحا في احتلالها، خصوصاً بعد أن ساعدهم اليهود في فلسطين، الذين كانوا ناقمين على البيزنطيين.

فتح الفرس المدينة سنة ٦١٤م، بعد حصار استمر ٢١ يوماً وتنص السجلات البيزنطية على أن الفرس واليهود ذبحوا آلاف المسيحيين من سكان القدس، وما زال هذا الأمر موضع جدال بين المؤرخين، حيث قال البعض بصحته ونفاه البعض الآخر واستمرت المدينة خاضعة للفرس طيلة ١٥ سنة، إلى أن استطاع الروم استعادتها سنة ٦٢٩م تحت قيادة الإمبراطور هرقل، وظلت بأيديهم حتى الفتح الإسلامي عام ٦٣٦م.

الفتح العربي الاسلامي

ارتبط المسلمون معنوياً بالقدس حتى قبل الفتح العمري لها، فقد كانت

أول قبلة لهم، وهي مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن صخرتها المشرفة كان المعراج إلى السماء، لذلك كان المسلمون يتوقون إلى اليوم الذي يتم فيه فتح القدس، وقد تحقق لهم ذلك بعد الانتصار على الروم في معركة اليرموك، حيث توجه إليها القائد أبوعبيدة عامر بن الجراح، لكن بطريرك القدس صفرونيوس اشترط تسليمها للخليفة عمر بن الخطاب شخصياً، فكان له ذلك عام ٦٣٦م حيث منح المسيحيين العهدة العمرية بالحفاظ على أموالهم وكنائسهم وحرية معتقداتهم الدينية مقابل الجزية.

ومنذ ذلك اليوم،أولى المسلمون القدس جل اهتمامهم، فعمروها بالمساجد والمدارس وغير ذلك، وأصبحت مقراً للعلماء والفقهاء وبلغ أوج الاهتمام بها في عهد الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان، الذي أقام مسجد قبة الصخرة المشرفة عام ٧٢هـ الموافق ٦٩١م. ثم شرع في بناء المسجد الأقصى، قبل أن يتوفى ليكمله الوليد بن عبدالملك عام ٨٦هـ الموافق ٧٠٥م.

ثم أصبحت القدس محط زيارة للعديد من الخلفاء العباسيين، الذين أجروا العديد من التجديدات والاصلاحات على المسجد الاقصى وقبة الصخرة المشرفة.

الطولونيون والإخشيديون:

عندما بدأ الضعف يدب في السلطة المركزية ببغداد فدخلت القدس وفلسطين في حوزة الطولونيين سنة (٢٦٥ –٢٩٢هـ / ٨٧٨ –٩٠٥ م)، وتلاهم في حكمهـا الإخشيديون سنـة (٣٢٧ –٣٥٩ هـ/ ٩٣٩ – ٩٦٩ م) وكان للقدس منزلة خاصة عند الإخشيديين بدليل أن ملوكهم جميعاً دفنوا فيها بناء على وصاياهم .

الفاطميون والسلاجقة:

في سنة ٣٥٩ / ٩٦٩ م استولى الفاطميون على القدس، وقد تميز حكم الحاكم بأمر الله (٣٨٦ –٤١١ هـ/ ٩٩٦ – ١٠٢٠ م) بالتعصب الديني واضطهاد النصارى فهدم كنيسة القيامة وغيرها من الكنائس وأوقع بالمسيحية شتى أنواع الاضطهاد، ولكن ذلك لم يصبهم وحدهم فلم يكن المسلمون من رعاياه أفضل حالاً بكثير.

وفي عهد الدولة الفاطمية استطاع الصليبيون الاستيلاء على بيت المقدس عام ١٠٩٩ وبقي في أيديهم حتى عام ١١٨٧م إلى أن استطاع القائد صلاح الدين الأيوب تخليصها منهم بعد معركة حطين.

وقد أزال صلاح الدين الصليب عن قبة الصخرة، ورفع فيها المصاحف وعين أئمة ووضع في المسجد الأقصى المنبر الذي كان قد أمر نورالدين محمود بن زنكي بصنعه ودشن إنشاءات إسلامية كثيرة في القدس أهمها

مدرسة الشافعية (الصلاحية) وخانقاه للصوفية ومستشفى كبير (البيمارستان)، وأشرف بنفسه على تلك الإنشاءات، بل شارك بيديه في بناء سور القدس وتحصينه، وعقد في المدينة مجالس العلم.

تولى حكم القدس بعد صلاح الدين ابنه الملك الأفضل الذي وقف المنطقة الواقعة إلى الجنوب الشرقي من الحرم على المغاربة، حماية لمنطقة البراق المقدسة، وأنشأ فيها مدرسة، وممن حكم القدس من الأيوبيين بعد الأفضل الملك المعظم عيسى بن محمد بن أيوب، الذي أجرى تعميرات في كل من المسجد الأقصى والصخرة وأنشأ ثلاث مدارس للحنفية (وكان الحنفي الوحيد من الأسرة الأيوبية)، ولكن المعظم عاد فدمر أسوار القدس خوفاً من استيلاء الصليبيين عليها وضرب المدينة فاضطر أهلها إلى الهجرة في أسوأ الظروف وتلى المعظم بعد فترة وجيزة أخوة الملك الكامل الذي عقد اتفاقاً مع الإمبراطور فردريك الثاني ملك الفرنجة، سلمه بموجبه القدس ما عدا الحرم الشريف، وسلمت المدينة وسط مظاهر الحزن والسخط والاستنكار سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩ م وبقيت في أيديهم حتى ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩م عندما استردها الملك الناصر داود بن أخي الكامل، ثم عادت إلى المسلمين نهائياً سنة ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م عندما استردها الخوارزمية لصالح نجم الدين أيوب ملك مصر.

المماليك:

دخلت القدس في حوزة المماليك في سنة ٦٥١ هـ/ ١٢٥٣ م وفي عصر المماليك حظيت المدينة باهتمام ملحوظ وقام سلاطينهم: الظاهر بيبرس (ت ٦٧٦ هـ/ ١٢٧٧ م) وسيف الدين قلاوون (حكم من ٦٧٩ – ٦٨٩ هـ / ١٢٨٠ –١٢٩٠ م) والناصر محمد بن قلاوون (ت ٧٤١ هـ / ١٣٤٠ م) والأشرف قايتباي (حكم من ٨٩٣ – ٩٠٣هـ / ١٤٨٦ –١٤٩٦ م) وغيرهم بزيارات عدة للقدس، وأقاموا منشآت دينية ومدنية مختلفة فيها كانت آيه للعمارة، وأجروا تعميرات كثيرة في قبة الصخرة والمسجد الأقصى، ومنالمنشآت التي أقامها المماليك زهاء خمسين مدرسة وسبعين ربط وعشرات الزوايا.

وفي سنة ٧٧٧ هـ جعلوا القدس نيابة مستقلة تابعة للسلطان في القاهرة مباشرة بعد أن كانت تابعة لنيابة دمشق ومن أثار المماليك في القدس انهم سحبوا المياه من عين العروب إلى الحرم الشريف، ومن أشهر المدارس التي أنشأوها المدرسة السلطانية الأشرفية والمدرسة التنكزية، وغدت القدس زمن المماليك مركزاً من أهم المراكز العلمية في العالم الإسلامي كله فكان يفد إليها الدارسون والمدرسون من مختلف الأقطار وقد اكتشف في الحرم القدسي سنة ١٩٧٤م وبعده وثائق مملوكية تلقى المزيد من الضوء على تاريخ المدينة.

العثمانيون:

في سنة ٩٢٢ هـ/ ١٥١٦ م وضع السلطان سليم العثماني حداً لحكم المماليك في بلاد الشام إثر انتصاره في معركة مرج دابق وفي السنة التالية احتل القدس ولما توفي السلطان سليم خلفه ابنه سليمان القانوني ٩٢٧ هـ/ ١٥٢٠م الذي اهتم بالقدس اهتماماً خاصاً وأقام فيها منشآت كثيرة منها سور القدس الذي دامت عمارته خمسة أعوام، وتكية خاصكي سلطان، ومساجد وأسبلة، وعمر كذلك قبة الصخرة.

الاحتلال الصليبي

رفعت الحملات الصليبية المتتالية زوراً وبهتاناً شعار انقاذ بيت المقدس من يد المسلمين، فتوجهت الجيوش الصليبية نحو الشرق عبر بلاد الشام، فاستطاعت احتلال القدس وإنشاء مملكة بيت المقدس الصليبية عام ١٠٩٩م، لتخضع لحكمهم ٨٨ عاماً، ارتكب خلالها الصليبيون أبشع الجرائم فى حق سكان القدس وقتلوا غالبيتهم، ودنسوا المسجد الاقصى وحولوه إلى اسطبل لخيولهم.

صلاح الدين يحرر القدس

لم يستسلم المسلمون لاحتلال القدس، فتصدوا لقتال الصليبيين في أكثر من مكان، واستطاع صلاح الدين الأيوبي بعد توحيد المسلمين أن ينتصر على الصليبيين في معركة حطين عام ٥٨٣ هـ الموافق ١١٨٧م، وأن

يحرر بعدها القدس صلحاً، حيث سمح للصليبيين بمغادرة المدينة، وانزال الصليب عن قبة الصخرة، وأقام في المسجد الاقصى المنبر الذي عرف باسمه، وأعاد اعمار القدس بانشاء الخنادق والأسوار والأبراج الحربية للدفاع عنها اذا ما تعرضت لأي عدوان.

تعرضت القدس بعد ذلك لحكم الصليبيين مرتين الأولى عندما سلمها الملك الكامل عام ١٢٢٩م لملك صقلية فردريك لمدة ١١ عاماً حيث استردها الملك الناصر داوود ليعود ليسلمها مرة ثانية للصليبيين لمدة أربع سنوات، إلى أن استردها نهائياً الملك الصالح نجم الدين أيوب عام ١٢٤٤م.

الاحتلال البريطاني

إثر الحرب العالمية الأولى وانكسار الجيوش العثمانية أمام القوات البريطانية، فقد تمكن الجنرال اللنبي من دخول القدس والاستيلاء عليها عام ١٩١٧واستمر الاحتلال البريطاني حتى عام ١٩٤٨، وقد سعت بريطانيا خلال هذه الأعوام لتمكين اليهود من فلسطين، والسماح لهم باقامة المستعمرات حول القدس بينما عاملت السكان العرب بكل قسوة واضطهاد، مما مكن اليهود من الانتصار على العرب عام ١٩٤٨ واقامة دولتهم على معظم أرض فلسطين، بما في ذلك الجزء الغربي للقدس، بينما ضمت الأردن الضفة الغربية ومدينة القدس إليها بعد حرب ١٩٤٨

وحتى عام ١٩٦٧.

التاريخ المعاصر

كان رؤساء بلدية القدس خلال المئة سنة الأخيرة قبل احتلال اليهود لها عرباً حتى إبان الانتداب البريطاني على فلسطين منهم: حسين الحسيني، موسى كاظم الحسيني، راغب النشاشيبي، مصطفى الخالدي وحسين فخري الخالدي وظلت القدس عربية، الشرقية منها والغربية، أي القدس القديمة والجديدة عربية بعدد سكانها وملكيتها ورئاستها، وما يحيط بها من قرى وثبت أن الحفاظ على المدينة المقدسة والأماكن الدينية فيها كان بسبب حكم العرب والمسلمين لها فلقد أثبت التاريخ أن وجود المدينة في أيدي العرب، من مسلمين ومسيحيين قد حافظ عليها وعلى المقدسات والأمن والسلام فيها، ولم تعرف في عهد اليهود إلا الخراب والدمار وتدخلت بريطانيا في فلسطين باسم حماية اليهود واستيطانهم فيها، لحماية قناة السويس وخدمة مصالحها في المنطقة وأنشأ اللورد بالمرستون قنصلية بريطانية في القدس عام ١٨٣٨ لتأييد أماني اليهود في فلسطين وإقامة وطن لهم فيها بحماية بريطانيا ووضعت بريطانيا عام ١٩٠٥تقرير كامبل لتجزئة الوطن العربي وعرقلة تقدمه والمحافظة على تخلفه وإقامة إسرائيل لمنع الوحدة العربية والمحافظة على المصالح الامبريالية، وأصدرت عام ١٩١٦وعد بلفور واحتل

الجنرال اللنبي القدس في ١٩١٧ووضع الحلفاء في مؤتمر سان ريمو فلسطين تحت الانتداب البريطاني، الذي التزم بتحقيق وعد بلفور وفتح أبواب فلسطين على مصراعيها للهجرة اليهودية ورفضت بريطانيا رغبة الفاتيكان عام ١٩١٧ وضع الأماكن المقدسة تحت إشراف إدارة دولية، لأن الفاتيكان لم يكن يرغب في وضع المصالح الكاثوليكية تحت رعاية بريطانيا البروتستانتية وإخضاع أماكن الحج المسيحية تحت السيطرة اليهودية عند إقامة الوطن القومي اليهودي تنفيذاً لوعد بلفور.

الاحتلال الإسرائيلي

عام ١٩٤٨ توقفت القوات اليهودية على بعد امتار قليلة من أسوار القدس القديمة، وبعد قيام الدولة العبرية اتخذت من القدس الغربية مقراً للعديد من مؤسساتها السياسية والمدنية وأهمها الكنيست، واستمر هذا الوضع حتى حرب عام ١٩٦٧ عندما وقعت القدس بأكملها تحت القبضة اليهودية، وبادرت باجراءاتها نحو الضم والتهويد، حيث تم هدم حي المغاربة بالكامل وانشاء حي يهودي مكانه.

وفي ١٩٦٧/٦/٢٧أضاف الكنيست بنداً إلى قانون يقضي بضم القدس، كما حلت المؤسسات العربية الموجودة فيها وطردت محافظها، وأنشأت بلدية القدس، وبدأت في حملة استيطان واسعة لتطويق المدينة وخلق واقع ديموغرافي مختل لصالحها، والتضييق على السكان العرب ورفض

منحهم رخص بناء وفرض ضرائب باهظة عليهم لدفعهم نحو مغادرة المدينة.

ثم وصل الأمر في ١٩٨٠/٧/٣٠إلى إقرار الكنيست الإسرائيلي للقانون الأساسي للقدس الموحدة،واعتبارها عاصمة موحدة لإسرائيل ومقراً للحكومة والكنيست ولم تسلم المقدسات الاسلامية في القدس من تدنيس اليهود ومحاولاتهم المستمرة لتدميرها، إذ أقدم يهودي استرالي عام ١٩٦٩على حرق المسجد الاقصى، كما تعرض مسجد قبة الصخرة لاعتداء مسلح عام ،١٩٨٢وأحداث اخرى كثيرة كان أخطرها عام ،١٩٩٦ عندما أقدمت حكومة نتنياهو على حفر نفق تحت الأقصى يهدد بقاءه، فاندلعت الانتفاضة التي عرفت بانتفاضة نفق الاقصى مما أرغم إسرائيل على وقف الحفريات تحت الأقصى.

هذه هي القدس التي من يزورها يشعر بعبق التاريخ، ويكاد يسمع تحت أسواقها المسقوفة وعبر شوارعها المرصوفة صليل السيوف الاسلامية وهي تدافع عن عروبتها عبر تاريخها ضد الغزاة، لكن القدس اليوم مدينة كئيبة يخيم الحزن على أرجائها، وتنام قبل مغيب الشمس، وكأنها مدينة مهجورة، بينما تبقى الأجزاء الغربية منها ساهرة حتى الفجر، وتمنع قوات الاحتلال الإسرائيلي الفلسطينيين من زيارتها إلا بتصاريح خاصة، والاستثناء الوحيد لهذه الحالة يكون في شهر رمضان

حيث يقصد ساحاتها المقدسة مئات الآلاف من المصلين، فتدب الحياة فيها.

ومن الملاحظ عبر مسيرة القدس الطويلة ان استعادة المسلمين لها جاءت في المرتين السابقتين صلحاً وسلماً، لكن بعد معركتين فاصلتين شهيرتين على أطراف فلسطين هما معركتا اليرموك وحطين فهل تتم استعادتها حالياً سلماً وصلحاً أم أن الأمر بحاجة إلى معركة فاصلة مع اليهود حتى تتم استعادتها ويفك أسرها ويزول حزنها؟؟!.